

الوظيفة الصوتية عند ابن جني

- قراءة في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني من كتابه الخصائص -

The phonetic function according to Ibn Janni - A reading on the chapter of words harmony for semantic harmony from his book Al-Khasa'is-

د. إبري أمينة*

تاريخ استقبال المقال: 2022/11/17

تاريخ القبول: 2023/12/28

تاريخ النشر: 2023/12/29

ملخص: يكمن الهدف من هذا البحث في تتبع الدلالة الصوتية في أصغر وحدة لغوية وهي الصوت، ومن الذين أدركوا أثر هذا المستوى وتحويله للدلالة داخل الكلمة، اللغوي ابن جني الذي أولى عناية فائقة للمستوى الصوتي في دراساته وقد أفرد لهذا الشأن باباً أسماه "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" في سفره العظيم المعنون بـ "الخصائص"، ولهذا كان موضوع البحث هو الوظيفة الصوتية عند ابن جني قراءة في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، لغرض تقصي مواطن تغير الدلالة بتغير الأصوات واختلافها باختلاف مخارجها وصفاتها.

الكلمات المفتاحية: الدلالة، الصوت، ابن جني.

Abstract: The aim of this modest research is to investigate the phonemic connotation in the smallest linguistic unit, which is the sound, and among those who realized the effect of this level and its transformation of the connotation within the word, the linguist Ibn Jinni, who paid great attention to the phonemic level in his studies, and he singled out for this matter a chapter he called "Consequential words to coincide with meanings." In Sefra al-Azim, entitled "The Characteristics", and for this reason the subject of the research was the phonetic function of Ibn Jinni, reading in the chapter on the coincidence

of words to coincide with the meanings, for the purpose of investigating places of change of significance due to the change of sounds and their differences according to their different exits and characteristics.

Keywords: semantics, sound, Ibn Jinni

1. مقدمة:

يعد ابن جني من الأوائل الذين أدركوا العلاقة الطبيعية الموجودة بين الأصوات، ولم يسبقه إلى هذه الفكرة أحد ولم يتطرق لها معاصريه، بل أفرد لعلم الأصوات أبوابا كثيرة في أسفاره متحريرا الدقة في معالجة مخارج الأصوات وصفاتها والأثر الوظيفي لها داخل الكلمات.

ومن هذه الأبواب التي بين من خلالها بأن للصوت دوراً بالغ الأهمية في تغيير دلالة الكلمة، في باب "أسماء تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" في كتابه "الخصائص" الذي هو محور الدراسة، محاولين تقصي مواطن تغير الدلالة بتغير الصوت داخل الكلمة والأثر الوظيفي له. للإجابة على الإشكال الآتي: هل للصوت حقا أثر بالغ الأهمية على الكلمة وتغيير المعنى المراد منها؟ وأن الأصوات في اللغة العربية لم توجد لدلالات اعتباطية وإنما لدلالات مقصودة تتأثر بصفة الصوت؟

فما كان لنا إلا أن نستعين بعالم لغوي شهير ذاع صيته في هذا المجال وهو ابن جني، ولهذا كان موضوع المقال حول "الوظيفة الصوتية عند ابن جني قراءة في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني من كتابه الخصائص".

معتمدين على المنهج الوصفي التحليلي، للوصول إلى أسباب تقارب المعاني بتقارب الألفاظ من خلال مخارج الأصوات وصفاتها.

2. تعريف الصوت اللغوي:

الصوت اللغوي هو أثر يحدث نتيجة احتكاك هواء الزفير بنقطة ما من نقاط الجهاز الصوتي عندما يحدث في هذا الموضع انسداد كامل أو جزئي يمنع الهواء الخارج من الجوف من حرية المرور¹.

والصوت هو أصغر وحدة لغوية، فهو "مادة الألفاظ وأساس الكلام المركب"²، ولا يكون الصوت لغوياً إلا إذا احتوته مجموعة من الخصائص وهي:

1- أن يصدر عن جملة من أعضاء الجسم الإنساني، ولهذا لا يُعد التصفيق أو إطلاق الرصاص مثلاً صوتاً لغوياً وإن كان دالاً.

2- لا بد لهذا الصوت أن يكون نتاج إرادة إنسانية، ولهذا لا يُعد الهذيان صوتاً لغوياً لانتفاء الإرادة في إصداره³، فالصوت اللغوي ينطلق من فكر الناطق المرسل إلى فكر السامع لتبليغ معنى أو فكرة ما.

3. دلالة الصوت عند ابن جني:

3. 1. الأصوات الحلقية:

استدل ابن جني بالقرآن الكريم ليثبت صحة العلاقة الموجودة بين الأصوات والمعاني داخل الكلمات في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾⁴، أي تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تزعجهم هزاً، والهمزة أحت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز، لأنك قد تهمز ما لا بال له كالجدع وساق الشجرة⁵، نجد من خلال المثال

¹ - يراجع تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1955، ص 67.

² - حسن ظاظا، كلام العرب "من قضايا اللغة العربية"، دار النهضة بيروت 1976، ص 07.

³ - يراجع هادي نهر، علم الأصوات الوظيفي، عالم الكتب الحديث الأردن 2011، ص 279.

⁴ - سورة مريم الآية 83.

⁵ - أبو الفتح عثمان ابن جني الخصائص، تحقيق عبد الحميد هندائي، دار الكتب العلمية بيروت ط 3/2008،

الذي ساقه لنا ابن جني بأن الأرزّ والهزّ يَحْمِلَانِ المعنى نفسه، إلا أن الأرزّ أقوى وأعنف من الهزّ والسرّ في ذلك هو قوة الهمزة لأنها صوت مجهور، أمّا الهاء فهي صوت مهموس مهتوت حلقي لا يلقى مروره اعتراضاً أثناء جريانه في الفم¹، والجهر أقوى من الهمس ولهذا حدث تقارب في المعنيين لتقارب اللفظين، وهنا يوجد تخير في اللفظ حسب المعنى المراد تبليغه، فالله عزّ وجلّ قال بأن الشياطين تؤزهم ولم يقل تهزهم لعظمة هذا الهزّ وعنفه عقاباً للمشركين، وفي حديثه عن العذراء مريم عليها السلام قال عز وجل: ﴿وَهَزِيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾² لم يقل أزي لأنها كانت في مرحلة ضعف ووهن ومقبلة على الولادة، والهزّ هنا ملائم ومناسب لحالتها عليها السلام، وفي هذا المقام وقع اختيار اللفظ حسب المعنى المراد، لأن صوت الهاء بصفاته ملائم لفعل الهزّ مقارنة بفعل الأرزّ من حيث الضعف والقوة والهمزة أيضاً، فهنا تقارب المعنيين لتقارب اللفظين.

ومن الأمثلة التي ساقها ابن جني في هذا الشأن قولهم: "العسف والأسف والعين أخت الهمزة، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها، والهمزة أقوى من العين، كما أن أسف النفس أغلظ من [التردد] بالعسف"³، الملاحظ من خلال هذا المثال بأن الأسف أقوى من العسف بحجة أن الهمزة أقوى من العين بالرغم من أن كليهما صوت مجهور، ولكن موضع الاختلاف هو أن الهمزة صوت شديد، أما العين صوت متوسط، ولهذا السبب حدث تقارب في اللفظين ونتج عنه بدوره تقارب في المعنى باختلاف بسيط يكمن في القوة والضعف، وفي موضع آخر يشير ابن جني إلى الأحداث الشديدة التي تستدعي أصوات شديدة والعكس صحيح، "ومن ذلك قولهم: خضم وقضم، فالخضم لأكل الرطب، والقضم للصلب اليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك...، فاختاروا الخاء

¹ - يراجع محمود السعران، علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، 1962، ص148.

² - سورة مريم الآية 25.

³ - ابن جني، الخصائص، ج1 ص499.

لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث "تقارب فعل الخضم والقضم المعنى ألا وهو الأكل ولكن بتفاوت في درجة القوة، لأن صوت الخاء صوت رخو مهموس والقاف صوت شديدة مجهور، ومن دلالاته الشدة والقوة، والفاعلية واليبس والجفاف والكسر والشق¹، وهذا ما يلائم معنى كلمة قضم ما دامت أنها للشيء الصلب الذي فيه قوة وعند أكله سيكسر ويُشق، والشعر أكل صلب بخلاف الأكل الرطب الذي يناسبه صوت الخاء بما يحمله من رخاوة واضطراب ورقة وصفاء عكس صوت القاف، فالعرب إذن كانت تختار الألفاظ حسب الأحداث المعبر عنها، وما يمكن ملاحظته أيضا أن الصوتين استمدا دلالتهما من طبيعتهما، لأن الجهر فيه قوة، فهو ملائم للشيء الصلب الشديد الذي يحتمل الكسر ما دام أنه صلب، أما الخاء فهو رخو، ولهذا فهو للشيء الضعيف اللين.

لم يكتف ابن جني بهذا القدر من الأمثلة لتأكيد صحة العلاقة الموجودة بين الصوت والمعنى بل ضرب مثالا آخر عن صوت الخاء والحاء قائلا: "النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح... فجعلوا الحاء لرققتها- للماء الضعيف، والحاء لغلظها- لما هو أقوى منه"²، الخاء والحاء صوتان مهموسان ولكن الخاء صوت مستعلي عكس الحاء صوت مستفل، وهذا هو الفاصل بين الصوتين الذي رجح القوة للخاء لا للحاء، ولهذا استعملت كلمة النضخ للماء القوي، أما كلمة النضح استعملت للماء الضعيف.

ما يمكن ملاحظته من هذا المثال والمثال الذي سبقه أن صوت الحاء والحاء والقاف لكل واحد منها بما يحتويه من صفات صوتية من غلظة أو رقة أو صلابة يوجه معنى الكلمة

¹ - يراجع المصدر نفسه، ص ن.

² - يراجع حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، اتحاد الكتب العرب دمشق 1998، ص 144-

كلها، فالحاء برخاوتها ملائمة لأكل الرطب، والقاف لصلابتها ملائمة لما هو يابس وشديد، والحاء ملائمة لما هو ضعيف لرققتها وليونتها¹.

3. 1. 1. الأصوات الذلقية:

وقف ابن جني عند الأصوات الذلقية ليبرهن على صدق نظريته التي مفادها بأن تقارب الأصوات في الألفاظ يسبب تقارباً في المعاني، ومن أمثلة ذلك "القرمة تُحز على أنف البعير، وقريب منه قلّمت أظفاري، لأن هذا انتقاص للظفر، وذلك انتقاص للجلد، فالراء أحت اللام، والعمالان متقاربان"، قلّم وقرّم متقاربان في المعنى لتقارب صوتي الراء واللام، ولكن بتفاوت مع أنهما صوتان مجهوران ومتوسطان، لأن انتقاص الجلد فيه ألم، أما تقليص الأظافر فلا ألم فيه، ومن معاني صوت الراء التكرار والتحرك بما يتوافق مع الخصائص الحركية لصوت الراء، ومن معاني اللام الليونة والمرونة والتماسك²، كلاهما ملائم للمعنى الذي وُظف لأجله في اللفظين؛ قرّم الجلد ليس بالأمر الهين، بل يستدعي حركة وتكرير الفعل ليتم انتقاص الجلد، أما الظفر انتقاصه أمر هين ولا يوجد فيه ألم، وهذا ما يتناسب مع خاصية الليونة الموجودة في صوت اللام.

3. 1. 2. الأصوات النطعية:

يمضي ابن جني في حديثه عن تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني في ضرب أمثلة أخرى وعديدة عن هذه الميزة الموجودة في اللغة العربية، منها "القد طولا، والقط عرضا، وذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال، فجعلوا الطاء مناسبة لقطع العرض، لقربه وسرعته، والدال المماثلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولا"³، القد والقطُّ لهما المعنى

¹ - يراجع عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي، دار أسامة الأردن 2009، ص388.

² - يراجع حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، (م.س)، ص79، 85.

³ - المصدر نفسه ص 502.

نفسه الذي هو القطع ولكن يختلفان في نوع القطع لأن الطاء كما وصفها ابن جني جعلت لقطع العرض عكس الدال التي عبر بها عن القطع طولاً، كلا الصوتين شديد ومجهور ولكن كيفية نطقهما هي التي أثرت على المعنى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَاحَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾¹، لم يتمزق قميص يوسف عليه السلام عرضاً وإنما طولاً ولهذا قال الله تعالى "قدت" لمناسبه صوت الدال لهذا المعنى، ومن ذلك قولهم: قرت الدم، وقرد الشيء وتقرد، وقرط يقرط، والتاء أخف الثلاثة: فاستعملوها في الدم إذا جف، لأنه قصد ومستخف في الحس عن القرد الذي هو النباك في الأرض ونحوها، وجعلوا الطاء-وهي أعلى الثلاثة صوتاً-(للقرط) الذي يسمع، وقرد من القرد، وذلك لأنه موصوف بالقلة والذلة قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾²، التاء صوت مهموس وشديد من معانيه الضعف والليونة والرقعة، ولهذا كان ملائماً لتجمع الدم لما فيه من ضعف، وبرر ابن جني ذلك بأنه مستخف في الحس عن القرد، أما الطاء هي أقواهم لأنها صوت مجهور وشديد ولهذا كانت للقرط الذي يسمع وكل ما يسمع فيه قوة والقوة خاصية أو ميزة يتصف بها الطاء لأنه صوت مستعلي ومطبق ومجهور وشديد عكس قرد الذي يحمل معنى القلة والوضاعة والذلة وهي صفة للقرد وهذا ما أكدته قوله تعالى: "كونوا قردة خاسئين" وهو الذلة والوضاعة والخط من شأن وقيمة هؤلاء الموجه إليهم الحديث لأنهم أصبحوا قردة.

ما يمكن ملاحظته هو أن هذه الأصوات (التاء، الدال، الطاء) لهما ميزات ناجمة عن طبيعتها من حيث النطق، هذه الميزات عبرت بدقة عن المعنى المراد تبليغه بالرغم من تقاربها في المخرج، أي يوجد علاقة تناسب بين الصوت والمعنى المقصود.

¹ - سورة يوسف الآية 25.

² - سورة البقرة الآية 65.

يبقى ابن جني مع نفس الأصوات المشار إليها -سابقا- لتقاربها في الألفاظ والمعاني ولكن باختلاف من حيث القوة والضعف لأنه قال: "واعلم أن العرب تقارب بين الألفاظ والمعاني إذ كانت عليها أدلة وبها محبطة فمن ذلك ما نحن عليه وهو نحت وينحت وقد قالوا نخط ينخط إذا زفر في بكائه، فكان ذلك الضغط الذي يصحب الصوت ينال من آلة النفس ويحثها ويسفنها فيكون كالنحت لما ينحت له وأخذ منه"¹، نخط هو البكاء بشدة وهذا المعنى يناسبه صوت الطاء لما فيه من شدة وجهر، لأن هذا النوع من البكاء فيه قوة وجهر وشدة التأثير في النفس، إذن تقارب المعنيين لتقارب اللفظين وكان الثاني نحت نتيجة للأول الذي هو نخط.

3.1.3. الأصوات الأسلية:

نوع ابن جني في الأمثلة التي أتى بها في مؤلفه "الخصائص" منها "العلز: خفة وطيش وقلق يعرض للإنسان، وقالوا (العلوص) لوجع في الجوف يلتوي له الإنسان ويقلق منه، فذاك من (ع ل ز) وهذا من (ع ل ص) والزاي أخت الصاد"²، الزاي صوت مجهور رخو والصاد أيضا رخو ولكنه مهموس ومن معاني الزاي التحرك والاضطراب والاهتزاز ومن معاني الصاد الشدة والصلابة والقوة³، وهذا ما نجده موافق لمعنى الكلمتين، لأن العلز هو قلق وطيش وهذا فيه نوع من التحرك والاضطراب، والعلوص هو الوجع الذي يسبب للإنسان قلق وهذا القلق ناجم عن شدة وقوة هذا الألم، ولهذا تقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكان للخصائص الميزة لكلا الصوتين انعكاس على دلالة اللفظين.

لم يكتف ابن جني بالصاد والزاي، بل راح يضرب لنا أمثلة أخرى تخص الصاد والسين، منها: "الوسيلة والوصيلة، والصاد -كما ترى- أقوى صوتا من السين، لما فيها

¹ - ابن جني، الخصائص، ج 1 ص 509.

² - ابن جني، المختضب، ج 2 ص 06.

³ - ابن جني، الخصائص، ج 1 (م، س)، ص 501.

من الاستعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيطة، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء... كاتصال الأعضاء بالإنسان، وهي أبعاضه... والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءاً أو كالجُزء من المتوسل إليه¹، يوجد تقارب في المعنى بين الوسيطة والوسيطة ولكن بتفاوت، لأن كليهما مهموس رخو ولكن موضع الاختلاف هو أن الصاد صوت مستفل من معانيه السهولة واللين والنقص في أكثر أحواله²، ولهذا السبب كان معنى الوسيطة أضعف من معنى الوسيطة.

هذه الأخيرة التي أُنْثِرَ في دلالتها صوت الصاد لما فيه من استعلاء وشدة وصلابة ولهذا جعلوا "الصاد لقوتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها، للمعنى الأضعف"³. وفي هذا تأكيد على أن اللغة العربية ميزتها الدقة في التعبير عن المعنى المقصود وليس جزافاً.

3. 1. 4. الأصوات الشفوية:

اهتمام ابن جني باللغة العربية وولوعه واهتمامه بها، وبالخاصية أو -إن صحَّ القول- الميزة التي عرفت بها، وهي تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، جعله يُفصِّل في الحديث عنها، لأنه تطرق لجميع الأصوات في اللغة العربية وآخر ما يمكن الوقوف عنده هو الأصوات الشفوية.

عرض ابن جني في هذا السياق ثلاثة أمثلة منها: "تركيب (ح م س) و(ح ب س) قالوا حبست الشيء وحمس الشرّ إذا اشتدّ، والتقاؤهما أن الشئيين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازّاً، فكان ذلك كالشرّ يقع بينهما"⁴.

¹ - يراجع حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها (م، س)، ص 140، 150.

² ابن جني، الخصائص، ج 1 ص 510.

³ - يراجع محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر دمشق ط 1975/6، ص 101.

⁴ - ابن جني، الخصائص، ج 1 ص 510.

الميم والباء لهما نفس المخرج، ولهذا تقارب المعنيان ولكنهما يختلفان في صفة واحدة وهي أن الباء صوت شديد، والميم متوسط الشدة، وكليهما مجهور، ومن معاني الميم الجمع والضم والانسداد والانغلاق. بما يتوافق مع واقعة ضم الشفة على الشفة بشدة، ومن معاني الباء أيضا الانغلاق، والضم والمنع بما يتوافق مع طريقة نطقها¹.

هذان الصوتان يتوافقان مع دلالة التركيبين لأن حبس الشيء ومنع الشر فيه نوع من الجمع والضم والانغلاق ليتم المنع.

تقارب الصوتان نفسيهما (الباء، الميم) في تركيب آخر لتأدية نفس المعنى، ومثال ذلك قولهم: "العَلْب: الأثر، والعَلْم: الشق في الشفة العليا، فذاك من (ع ل ب) وهذا من (ع ل م)، والباء أخت الميم"²، أي أن الشق في الشفة هو نوع من الآثار والأثر كما أوضح ابن جني هو العلب، ولهذا تقارب اللفظان لتقارب المعنيين، يستدل ابن جني بقول طرفة بن العبد:

كَأَنَّ عُلُوبَ النَّسْعِ فِي ذَايَاتِهَا**مَوَارِدَ مِنْ خَلْقَاءِ فِي ظَهْرِ قَرَدٍ³
شبه الشاعر أثر النسع الذي هو سير تُشدُّ به الرحال على الدأيات التي هي أضلاع الكتف بالموارد الموجودة على الصخرة الملساء المستقرة على ظهر الأرض المرتفعة⁴.
هدف ابن جني من وراء هذا المثال هو التأكيد على معنى العَلْب بأنه الأثر، ليكون التقارب بينه وبين العَلْم، تقارب منطقي مقبول.

¹ - يراجع حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، (م، س)، ص 73، 101.

² - ابن جني، الخصائص، ج 1 (م، س)، ص 500.

³ - طرفة بن العبد، الديوان، شرح الأعلام الشنتري، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق 1975، ص 26.

⁴ - يراجع ابن جني، الخصائص، ج 1 ص 500.

وآخر مثال تطرق إليه هو "العَرَب: الدَّلُو العظيمة (وذلك لأنها يُعرف من الماء بها)، فذاك من (غ ر ب)، وهذا من (غ ر ف)"¹، الباء والفاء صوتان شفويان الأول شديد مجهور، أما الثاني مهموس رخو، ولهذا بالرغم من تقارب اللفظين من حيث المعنى، إلا أن الغرب هو الوسيلة التي يتم بها غرف الماء، ففعل الغرف يستدعي الغرب، فلولا الغرب لا يتم الغرف، فهو بحاجة إليه.

ما يمكن ملاحظته على هذه الأمثلة التي تم عرضها من طرف ابن جني لتبرير العلاقة الموجودة بين الألفاظ والمعاني، أنه تمت المقاربة بين اللفظين بحرف واحد سواء كان ذلك في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها، كما أنه ضرب أمثلة عن المضارعة في الأصل الواحد بحرفين وحتى بالأصول الثلاثة التي هي الفاء والعين واللام، وهذا ما سنتطرق إليه في العنصر الموالي.

3. 1. 5. المقاربة في الأصل الواحد بأكثر من حرف:

من النماذج التي استدل بها ابن جني في سياق حديثه عن الوظيفة الصوتية والأثر البالغ لميزات الصوت على دلالة الكلمة تحدث عن المضارعة في الأصل الواحد بحرفين: "وذاك من (س ح ل) وهذا من (ص ه ل)، والصاد أخت السين كما أن الهاء أخت الحاء"²، تَقَارَبَ اللفظان في المعنى لتقارب أصواتهما لأن الصاد والسين كلاهما صفيري ولهما نفس المخرج، والحاء والهاء صوتان حلقيان، ولهذا السبب وقع تقارب بين اللفظين في المعنى.

وأكثر شيء يدل على دقة العرب في التعبير عن المعنى المقصود كما هو المضارعة بالأحرف الثلاثة للأصل الواحد، وكان لابن جني أمثلة عديدة في هذا الجانب نذكر منها: قولهم "عصر الشيء، وقالوا: أزلّه، إذا حبسه والعصر ضرب من الحبس وذاك من (عصر) وهذا من (أزل)"³، عصر وأزل لهما نفس المعنى أو إن صح القول يتقاربان في المعنى، لأن

¹ - المصدر نفسه، ص 501.

² - ابن جني، الخصائص، ج 1 ص 502.

³ - المصدر نفسه، ص ن.

أزل الشيء هو حبس له والحبس فيه نوع من العصر، ولهذا تقاربت العين والهمزة، والصاد والزاي، والراء أخت اللام، ومن ذلك أيضا "العَدْر، كما قالوا الحَثْل والمعنيان متقاربان، فذاك من (غ د ر)، وهذا من (خ ت ل)، فالعين أخت الخاء، والدال أخت التاء، والراء أخت اللام"¹، الغين والحاء صوتان حلقيان، والتاء والدال صوتان نطعيان، والراء واللام صوتان ذلقيان، وهنا تقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وأمثلة ذلك كثيرة وموجودة في أكثر الكلام في اللغة العربية، تحتاج للبحث والتعمق فيها، ومن اكتشفها وهي بطبيعتها، ولكن ابن جني يرى بأن هذا أمرا مستحيلا وبعيدا.

إن هذه الأفكار التي أتى بها في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني أوحث إلى بعض الباحثين بنظرية القيمة التعبيرية للحرف في الألفاظ العربية².
أما محمد مبارك مع إعجابه بالكثير من المواضيع التي أشار إليها ابن جني، فإنه يرى من تَعَجُّل الأمور تقديم نتائج عامة حول معاني الحروف العربية قبل الاستقراء والتحري وحجته في ذلك أن الأمثلة التي قُدِّمت لا تكفي لاستنتاج قانون عام يجعل لكل حرف معنى خاصا به³.

3. 1. 6. التقابل بين الألفاظ والأحداث الدالة عليها:

بعدها تحدث عن الدلالة المستوحاة من الحرف وتأثيرها في دلالة الألفاظ عن طريق تقاربها انتقل في موضع آخر للحديث عن تلك العلاقة التي تربط الألفاظ بالأحداث المُعَبَّر عنها.

¹ - المصدر السابق، ص ن.

² - يراجع صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1/1960، ص 141.

³ - يراجع محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، (م.س)، ص 103

قبل استهلاله الكلام في هذا الأمر، أشار إلى أن الخليل وسيبويه سبقاه في هذا الموضوع، كما أن الجماعة قبلت ما أتى به هذان العالمان واعترفت بصحته¹.

وبالبحث فيما ترك الخليل وسيبويه لا يجد أصلاً من أصول اللغة والنحو إلا وتكلما عليه، وإن كان ذلك بطريقة موجزة أو إشارات عابرة، لأنهما فتحا الطريق للغويين بعدهما في هذا المجال، ومن هؤلاء العبقرى ابن جني الذي اهتم بهذه الإشارات الخاطفة من كلام الإمامين، ووسع فيها وألف فيها أبواباً طويلة².

فكرة التقابل الموجود بين الألفاظ والأحداث هي فكرة سبقه إليها الخليل وتلميذه سيبويه، لأن الخليل قال: "كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدّاً فقالوا: صرّ وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر"³.

يوجد تناسب بين اللفظين والحديثين المعبرَ عنهما، لأن صرّ بالشدة فوق الرء تناسب صوت الجندب لاستطالته، والشدة فيها مد أيضاً.

ونجد نفس اللفظ يدل على صوت البازي المقطع، ولكن هذا اللفظ سقطت منه الشدة وتكرر الحرف دلالة على التقطيع.

فمقابلة الألفاظ للأحداث المعبر عنها عند ابن جني "باب عظيم واسع، ونهج ملتب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمة الأحداث المعبر بها عنها"⁴، ومن أمثلة ذلك:

1. تكرار الحرف في اللفظ يقابله تكرار الحدث أو الفعل في الواقع لقوله: "أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي لتكرير نحو الزعزعة والصلصلة والفقهقة والجرجرة والقرقرة"¹.

¹ - يراجع ابن جني، الخصائص، ج 1 (م.س)، ص 505.

² - يراجع أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللغة العربية، دار الفكر المعاصر بيروت ط 3/2003، ص 194.

³ - ابن جني، الخصائص، ج 1 ص 505.

⁴ - المصدر نفسه، ص ن.

2. توالي الحركات في الألفاظ يقابله توالي الأحداث² أن "الفعل في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة، نحو البشكى، والجمزى والولقى"³.

في هذه الأمثلة توالى ثلاث فتحات مطابقة تماماً لصيغة الفعل، ولهذا لاءمت التعبير عن توالي الأحداث.

3. ترتيب الحروف في الكلمات يقابله ترتيب الأفعال التي تدل على تلك الكلمات⁴ نحو استسقى، واستطعم، واستمنح واستقدم عمرا واستصرخ جعفرًا، فرتبت في هذا الباب الحروف على ترتيب هذه الأفعال التي وردت على وزن استفعل، وفيه الهمزة والسين والتاء زائدة، ثم الفاء والعين واللام أصلية، وقد تبعت الحروف الأصلية الحروف الزائدة هذه الأخيرة التي وضعت للالتماس والطلب.

والسبب في ذلك أنها تأتي قبل حدوث الفعل لأنها طلب له، فوجب لذلك أن تسبق الحروف الأصلية وهذا ما أشار إليه بقوله: "فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه، فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة"⁵.

4. تكرار العين في الفعل يقابله تكرار الحدث، لأنهم قالوا: "كسر وقطع وعلق، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلاً المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين

¹ - ابن جني، الخصائص، ص 505.

² - أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللغة العربية، (م.س)، ص 195.

³ - ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 505.

⁴ - المصدر نفسه، ص 506.

⁵ - المصدر السابق، ج 2، ص 507.

أقوى من الفاء واللام ذلك لأنها واسطة لهما، وهما سياج لها ومبدولان للعوارض دونها، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيهما دونها... وقلما نجد الحذف في العين¹.

فالعرب إذن كانت تعبر عن تكرار الأحداث بتكرار في حرف معين، والسر في اختيارها للعين في الفعل لأنها كانت محمية من الحذف لتوسطها الفاء واللام، فهما -كما وصفهما- كالسياج لها، فهي ثابتة لا يطرأ عليها تغيير، فوقع التكرار فيها للتعبير عن الأحداث المكررة، تكرار العين واللام في البناء يدل على المبالغة والأصل هو تكرار العين إلا أن اللام أتبع بالعين في باب المبالغة مثل: دمكمك وصمحم وعركرك وعصصب وعشمشم.

تعتبر اللام تبعا للعين ولا حقة بها للمبالغة، مثل: اخلوق واعشوشب واغدودن واحمومي واذلولي واقطوطي. "وتكرير العين في باب صمحم إنما هو للعين وإن كانت اللام فيه أقوى من الزائد في باب افوعول وفوعول وفيعول وفنعول لأن اللام بالعين أشبه من الزائد بها، ولهذا أيضا ضاعفوها كما ضاعفوا العين للمبالغة نحو عتل وصمل وقمد وحزق²، أي أن العين وإن كان التضعيف فيها أقوى من اللام لأنها قد تكون زائدة، ولكن هذا لم يمنع من تضعيفها بغية تحقيق المبالغة.

3.2. دلالة الأصوات الصائتة:

عدد الصوائت في اللغة العربية ستة: ثلاثة قصيرة وهي (الضمة، الكسرة، الفتحة) وأخرى طويلة وهي (الألف، الواو، الياء)، وهذه الصوائت لم يهملها العرب القدماء ولم يبعدها عن أحاديثهم ولم يغمطوها حقها ومكانتها في تحديد الدلالة، ومن هؤلاء ابن جني الذي اعتنى بها على أساس أن لها هي الأخرى دور في تحديد الدلالة في الكلمة. وأول ما سنتطرق إليه في هذا الموضع هو الحركات القصيرة ثم تليها الطويلة.

¹ - يراجع المصدر نفسه، ص ن.

² - يراجع المصدر نفسه، ص 349.

3. 2. 1. الصوائت القصيرة:

عرفها ابن جني قائلا: " الحركة حرف قصير، ألا ترى أن متقدمي القوم من كان يسمى الضمة واوا صغيرة، والكسرة ياءً صغيرةً، والفتحة ألفاً صغيرة" ¹ ما يلاحظ عليه أنه دائما في حديثه عن الحركات الصغيرة يربطها بالطويلة لأنها أبعاض منها لقوله: "اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات، وهي الفتحة والكسرة، والضمة" ².

والدليل على هذه الحركات أي -الفتحة والضمة ولكسرة- أبعاض لحروف المد واللين "أنك متى أشبعت واحدة منهم حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك نحو فتحة عين عمر، فإنك إن أشبعتها أحدثت بعدها ألفا، فقلت عامر، وكذلك كسرة عين عنب إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة، وذلك قولك عينب، وكذلك ضمة عين عمر لو أشبعتها لأنشأت بعدها واو ساكنة، وذلك قولك عومر" ³

فالحديث إذن عن الصوائت القصيرة يستدعي بالضرورة الحديث عن نظيرتها الطويلة، لأن كليهما مرتبط بالآخر.

4. خاتمة:

مما تم ذكره آنفا يمكننا القول إن:

- للصوت تأثيرا بالغ الأهمية في دلالة الكلمة سواء كان صوتا صامتا أو صائتا.

¹ - ابن جني، الخصائص، ج 2 (م.س) ص 98.

² - ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق محمد محسن إسماعيل، رشدي شحاتة، دار الكتب العلمية لبنان ط 2007/2، ج 1 ص 33.

³ - المصدر نفسه، ص 34.

-فكرة اعتبارية اللغة لا تصلح على اللغة العربية والدليل ما أتى به ابن جني وساقه من أمثلة تؤكد على الدور الوظيفي للصوت، وما له من قوة في تحوير المعنى وتغييره حسب صفاته وطبيعته.

-هناك تقارب في المعنى بين الألفاظ التي تكون أصواتها متجاورة ولها نفس المخرج ولكن اختلاف المعنى ينجم عن اختلاف صفاتها وإن كانت تتشارك في بعض الصفات.

-صفات القوة في الصوت كالجهر والشدة والاستعلاء والإطباق كانت تخدم مواطن ومعاني القوة في الكلمات، عكس معاني الضعف التي وجدت في أصوات من صفاتها الحمس والاستفالة والانفتاح والرخاوة.

-للصوائت أيضا دور في تغيير المعنى كنظيراتها الصوامت.

-لم يكتف ابن جني بهذا القدر؛ بل أشار أيضا للعلاقة الموجودة بين الأحداث ومسمياتها، معترفا في ذلك بأنه باب سبقه فيه سيبويه.

ولكن لا يمكننا أن نحدد لكل صوت معان معينة، لأن تأثيره في دلالة الكلمة مرتبط بالمعنى الذي تقتضيه.

5. قائمة المراجع:

1. ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3/2008.
2. ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه الشواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شلبي، القاهرة 1994.
3. ابن جني، سر صناعة الاعراب، تحقيق محمد إسماعيل، رشدي شحاتة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3/2008.
4. أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللغة العربية، دار الفكر المعاصر بيروت ط3/2003.
5. تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها، طبعة دار الثقافة المغرب، د ط، د ت

6. حسن ظاظا، كلام العرب، دار النهضة بيروت 1976.
7. حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، اتحاد الكتاب العرب دمشق 1998.
8. صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين بيروت ط1/1960.
9. عبد الكريم مجاهد، علم اللسان العربي، دار أسامة الأردن 2009.
10. محمد مبارك، فقه اللغة العربية وخصائص العربية، دار الفكر دمشق ط6/1975.
11. محمود سمران، علم اللغة، دار المعارف القاهرة 1962.
12. هادي نهر، علم الأصوات الوظيفي، عالم الكتب الحديث الأردن 2011.